اللغة والقول الفلسفي

د.أحمد ماجد

الكلمات المفتاحيّة: أحمد ماجد، اللغة، الفلسفة، الفكر، الدين، القِيم، الذاتية.

يخرج عليك بعض مَنْ حمل الفلسفة شعارًا[1] بقوله إنّ ما نقرأه من فلسفة إسلامية لا تتعدى كونها لاهوت كُتِبَ بلغة برهانية، ويبدأون بتقعيد الكلام وتقعيره، حتى لتحسب القائل قد ولج في عالم السرّ، وقبض على حقيقة، لم يتنبه إليها الأوائل، وقصَّر عنها اللاحقون. فتبحث في إمكان أن تكون قد رحلت عن مقصد علمك، وعلقت بين جدليات فُتِلَت، فكانت لك شركًا. تعيد الكلام في ذهنك، علّك تقبض على مآلات القائل. عبثًا تحاول، وكأنّ باب العلم سدّ دونه، ولم يبق إلا أن تقف عند بابه تستصرخ نفسك، أو تستصرحها لتقف على إجابة، ولكنك تتعب، وتقرر في نهاية الأمر، أن تنيخ راحلتك، وتكتفي بما عندك من زاد، لتسأل: إذا كان القول الفلسفي لغة ألا يجب أن تخضع لِمَ تقرره؟ وهذه القابضة على ناصية المعنى أليست عاكسة للذات والوجود، ومحددة الإطار المرجعيّ وحركية الفكر؟ فكيف يمكن أن تعبر عن مقولة لم تصبغها بلونها؟ فهل الكلام صباغٌ التقطته "أليسار"[2] صدفةً من شاطئ بحر لوّنت به الكلام دون المساس بمحتواه؟ أليست اللغة ثوب الفكر، الذي يستخدم من أجل الإفصاح عن ما يجول به؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن لعاقل أن يصف انتاج منظومة قولية ويرجمها مُدعيًا أنّها خرجت عن تقليدٍ[3]. وهذا ألا يحتاج إلى اثبات من داخل حركية المنظومة؟ وقبل هتك سر المقول ألا يفترض العودة إلى اللغة نفسها لدرسها والنظر إليها، قبل تجليها ألفاظًا مُلقاة أو جملًا مُصاغة، حين كانت تحتل مكانة في ذهن القائل، أليست هي وسيلة اظهار واخفاء؟ تُظهر ما يريد القائل أن يبوح به، وتُخفي مرجعية قولية وخبرة، تتداخل فيها مجموعة من الخصائص الذاتية والموضوعية.

---

[1] الشعار يُحمل على معانٍ، وإن دلّ على ظهور فهو يخفي تحته دلالات أخرى، نترك للقارىء العودة إليها، لعلّه يستكمل ما أغفلنه قصدًا.

[2] شخصية أسطورية، يُقال أنّها اكتشفت صدفة الموركس التي استخرج منها الصباغ الأرجوانيّ.

[3] التقليد هنا بمعنى ديني، يُقصد منه التعبيرات المستقيمة، التي تعبر عن انضباط الممارسة، والفلسفة عندما تكون منضبطة بحسب قولهم تتحول إلى تقليد.

فاللغة لا يمكن النظر إليها باعتبارها الناجز، فهي بحسب التأمل السوسيري: "كائن متعدد الألوان ومختلط العناصر فهي على مفترق الطرق بين عدة ميادين، الفيزيائي والفسيولوجي والنفسي، وهي تنتمي إلى المجال الفردي وإلى المجال الاجتماعي، وهي لا تقبل أن تصنف ضمن أيّ مقولة من الوقائع الإنسانية، لأننا لا نعرف كيف نستخرج وحدتها"[4]، بالتالي كيف يمكن أن نصنف القول بأنّه فلسفي أو غير ذلك، فإن كنا لا نستطيع أن نضبط اللغة نفسها وتصنيفها، ألا يكون من الأجدى أن ننظر إلى القول بذاته داخل نسقه الخاص لنرى حركيته، لعلّ ذلك يُعيننا للقبض على سيالاتها، لأنّها وحتى عند انضباطها بقواعدها، تعود لتتشظى عند الكلام والقول، وهذا ما يجعل المقول يتخطى الشكل "المنجز" ليجعل كلّ مقاربة لها تأويل، وإذا افترض المؤول أنّ المقول لا ينتمي إلى علم ألا يكون قد بالغ في تأويليته؟

فاللغة ما انفكت موصولة بسلسلة علائقية، لا يمكن أن تتمعن من دونها، منها تستمد حيويتها، وتستطيع من خلالها أن تبني الدلالات، حتى لو افترضنا هذه الدلالات مرضية على حسب قول "ماكس مولر" أثناء حديثه عن الأسطورة، ففي هذه اللحظة لا نُخرج الأسطوري من الحقل ونعتبره ملهاة، بل نعود إليه باعتباره دال نفسي مفصح، وهذا ما يوصلنا إلى القول أنّ نبذ الفلسفة الإسلامية من القول الفلسفي لا يتعدى كونه اعتلالًا قوليًا، يشير إلى نبز المحتوى المؤسس لهذه الفلسفة ومحتواه اللامفكر فيه، وهو يشير إلى رفض المرجعيات الكامنة فيها، كما يقول التوحيدي: "فأما كراهية الناس الشيء لاسمه، أو للقبه ونبزه، فالجواب عن هذه المسألة، وذلك أنّ الأسماء والألقاب أيضًا تكره لكراهة ما تدلّ عليه للعادة الأولى، فلو أنك نقلت اسم الفحم إلى الكافور، فيما بينك وبين آخر لكان متى ذكر الفحم تصور السواد، ولم يمنعه ما انتقل فيما بينه وبينك إلى مُسمى آخر أبيض طيب الرائحة"[5].

فالمشكلة ليست في القول الفلسفي الإسلاميّ، فكلّ قول يحتوي مرجعياته، التي لا يمكن أن تنفصل عنه، حتى عند كلامنا عن فلسفة حديثة ومعاصرة، فلا يمكن بناء قاعدة قولية دون منظومة فاعلة، تتألف من مجموعة من العناصر التي تتحرك فيها، وهي تتألف من الأمور التالية:

---

[4] Mounin, in "*Langage et expression*" Philosopher, Les interrogations contemporaines, Fayard, 1980, p 142.

[5] أبو حيان التوحيدي، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين وأحمد صفر، القاهرة، 1951، الصفحة 27.

1– الدين: وما يستجلب معه من نظرة للكون بكلّ ما فيه، وهنا يتمّ تحديد موقعية الإنسان في العالم، ويجري تبرير سبب الوجود وهدفيته، واللغة هنا ليست هامشية، لأنّها ترتقي إلى مستويات متعددة بحسب المنظومة الدينية العاملة فيه، فهي قد ترتد إلى الذات لتتحول إلى تفكر في الكون للاتحاد به، أو تنفتح على الحياة لتحكمها، وهذا ما يجعل من اللغة وحتى في شكلها الصناعي، بما هي تعبيرات عن علوم، خاضعة لمستوجبات الدين ومحتواه، وهي قد تقف عن الحركة عند الراهب البوذي من الزن، لتصبح تأملًا بالفراغ أو بالأشياء، وقد تصبح تواصلًا مع العقل لحضور العلم عند العالم، وفي كلتي الحالتين لدينا لغة، والفارق بينهما في كيفية حضورها وفاعليتها.

2– القيم[6]: تقسم إلى قيم عامة نظمها الاجتماع العام، لتحتوي الخبرات التي عاشتها المجموعة المنتمية إليها، وهذه القيم تحكم حياة الإنسان المستقبلية، وتبني "أناه أعلى" وتحدد له الممكن والمباح والممنوع. وهذا الأمر ينعكس في الاجتماع باعتباره لغة ذات طبيعة ثنائية: ما فوق لفظية وهي عبارة عن أفعال متعارف عليها، ولفظية هي مجموعة من العبارات المنظومة المتفق عليها بين الجماعة، وهي في هذه النقطة تتوسع لتصبح لغات بحسب الواقع الذي يعيشه الإنسان، فهي قد تصبح سوقية عند رجل الشارع العادي، وصناعية بحسب اختصاص المتكلم، أو فكرية تعكس أدبًا وفنًا وفلسفات.

ويُضاف إلى القيم المشار إليها، القيم المعاشة للفرد في حياته اليومية، وما تستحضر معها من وقائع تحفر في النفس وتترك ندوبات أو حالات من لاوعيّ ذاتي، تعود لتظهر فيما بعد من خلال الكلام أو الفعل.

3– قواعد اللغة: وهي تحدد في التركيب القواعدي والبنية الذاتية للغة نفسها، فاللغة على هذا المستوى مرآة عاكسة لنمط كامل لا يمكن الانفكاك عنه، وهي تؤسس وتحكم نمط التفكير، وبالتالي طريقة التعبير، وترفق بمنطق خاص في فقه الأمور وترجمتها استدلالات يوجبها تركيب اللغة نفسها. فالمقولات الفكرية التي بنى اليونانيون عالمهم بواسطتها، وحددوا آفاق تصوراتهم بتفرعاتها، غيرها عند العرب؛ وتلك التي راجت في الفكر الألماني مثلا مختلفة عن مثيلاتها في النظرة الأنجلوسكسونية إلى الكون ومدى علاقة الفكر به.

---

[6] يقصد بالقيم value system الذي يشكل اطارًا مرجعيًا للسلوك، يحمل تصرفات، ويوضح أولويات التي يتبناها الفرد أو الجماعة.

وهذا لا يعني أنّ اللغة تتجمد أو تُجمِّد نظرة الإنسان إلى العالم، فاللغة العربية شهدت تحولًا رهيبًا، طرأ عليها بظهور الإسلام وانتشاره في ربوع الأرض، ومن ثم انتقالها من البداوة كحالة وكبيئة حاضنة إلى الحضر، وما له من واقع مغاير تمامًا من حيث الألفاظ والتراكيب والتعبيرات، التي هي وليدة حياة تختلف شكلاً ومضمونًا عن حياة البادية، ناهيك عن اختلاط العرب بغيرهم من أجناس الأرض؛ مما أدى إلى تحولات دينية وقيمية كان لا بد لها أن تنعكس في الشكل العام للغة، ولكن هذا التحول لم يمسّ الحركية الداخلية الخاص بها، ولكن هذه الحركية انتقال من السوقي العام إلى اللغة الخاصة أو الصناعية التي عملت على الارتقاء بالمحتوى والمضمون.

4– الذاتية: أي الأنا بالعالم، فالإنسان ذات مفكرة، لا يمكن أن تعزل عن تجربتها التي يعيشها، وما فيها من تماس مباشر مع الجسد وما يطرأ عليه من أفراح وأتراح ومرض، وهي وإن حاولت أن تُظهر التوافق العام، ولكنّها تحيل كثير من الأمور إلى منطقة لا وعيها، التي سرعان ما تعبر ذاتها عند انفرادها أو تعبيرها عن نفسها خلال القول.

بالتالي، لا يمكن النظر إلى الأقوال باعتبارها الناجز أو المتحقق، التي يمكن أن تعالج انطلاقًا من مقولات قواعدية، لا يمكن تصنيفها، فالتصنيف الذي تخضع له الأقوال تأويلات ولغات دخيلة، تُدمِرُ القول، وتحيله بمقتضى رغبة المؤول، وهي لا تخص القائل.

فما نحن أمامه، لا يتعدى كونه نبزٌ واحتفاءٌ بذات تعيش اغترابًا، وهو يضرب البنية القولية برمتها، إن لم نقل فيه الغاء للإنسان كذات مفكرة، فالفلسفة كلغة صناعة واحدة، ولكنّها متعددة بحقيقتها، واحدة باعتبارها بنية قولية ذات طبيعة برهانية، تقوم على الدليل، ولكنّها متعددة بحسب مرجعياتها التي تنتمي إليها، والتي حكمت مسارها من جهة وتجربة الإنسان ذاته وخبرته الحياتية من جهة أخرى.

لذلك عند النظر إليها بما هي منجز كتابي لا بد من الاعتراف بها بحسب موقعها في نظامها القولي، بالتالي لا يمكن محاكمتها وتصنيفها على اعتبارها فلسفة إسلامية أو مسيحية أو غربية، فهي فلسفة. ولا يمكن أن تحاكم من خارج سياقها الخاص، فتحكم بضرس قاطع أنّها كلام أو لاهوت... فالكلام التصنيفي خروج عن قواعد التفلسف، ورفضٌ لكلّ ما ينتجه الآخر، الذي قد لا يشبهني لأنّه آخر، ولو كان "أنا" لحصل انقلاب وهذا يُخالف قاعدة "أنا أفكر إذًا أنا موجود"، ووجودي هذا هو الذي يحتمّ عليّ الكلام بلغتي وما تحتويه من مرجعيات وقواعد وخبرة.